الرواية/ السير ذاتية النسوية العربية، من التّكتُّم إلى البواح.. رواية (أنثى الأنهار) للسودانية "إشراقة مصطفى" أنموذجا

د. البشير ضيف الله♥

استلم: 2025/02/26 مقبول: 2026/04/13 نشر: 2026/06/15

المُعرّف الرّقميّ للمقال: DOI 10.33705/0114-028-002-015

The Novel / Biographies of Arab Feminism, From Confidentiality to Disclosure. The novel (ountha al-anhar) by the Sudanese "Mustafa's Sunrise" is a model

Abstract: The Arab Feminist Novel has undergone significant transformations that have led in many cases to breaking with the domination and constraints dictated by the socio-psychological data that have shaped social behavior, considering women as a social component that has worked and continues to work to make its voice heard and achieve its goals regardless of the socio-cultural burden of each environment.

The novel has been a means of disrupting dominant concepts and behaviors, including the writings of the Sudanese novelist Ishraqa Mustafa, who presented in her novelistic experience a living model of the suffering of Arab women through her novel (Female Rivers) in a society that is still governed by customs,

♥ أستاذ النقد المعاصر، جامعة يحي فارس، bichrhamam@yahoo.fr، (المؤلّف المرسل).

such as Sudanese society, which represents the sample of this study.

Keywords: Writing; narration; domination; tribal discourse; masculine discourse.

ملخّص: لقد عرفت الكتابة النسوية العربية تحولات مهمّة أفضت في كثير من الأحيان إلى الخروج عن الهيمنة والإكراهات التي أملتها معطيات سوسيو–نفسية أثثت السلوك الاجتماعي باعتبار المرأة مكونا اجتماعيا كانت ولاتزال تعمل على إيصال صوتها وتحقيق ذاتها بصرف النّظر عن المحمول السوسيو–ثقافي لكلّ بيئة، فلم تعد المرأة كائنا بيولوجيا فحسب خصوصا في المجتمعات ذات الطابع القبلي، وإنما أصبحت تعبّرعما تعانيه من قهر وإكراه، فكانت الرواية سبيلا إلى خلخلة المفاهيم والسلوكات السّائدة، من ذلك كتابات الروائية السودانية (إشراقة مصطفى) التي قدّمت في تجربتها الروائية نموذجا حيّا لمعاناة المرأة العربية من خلال روايتها (أنثى الأنهار) في مجتمع لاتزال الأعراف تحكمه كالمجتمع السوداني الذي يمثّل عيّنةَ هذه الدراسة.

كلمات مفتاحيّة: كتابة؛ سرد؛ هيمنة؛ خطاب قبلي؛ خطاب ذكوري.

مقدّمة: وجب أوّلا التأكيد على أنّ مصطلح رواية السيرة الذاتية(le roman autobiographique) لم يتحدّد إلاّ سنة 1979م مع الفرنسي (جورج ماي) رغم إقراره بالتداخل الشّديد بين الرواية والسيرة الذاتية لذلك وفي ظلّ هذا التداخل يبقى الاشتغال النَّقدي على ضرورة وضع حدود فاصلة بينهما مشوبا بكثير من الفخاخ والفاصل بينهما –في نظري على الأقل– هو التخييل

الفنّي الذي يحوّل الحقائق الواقعة "السيرة الذاتية" إلى حقائق ملوّنة / جاذبة / مفتوحة على التأويل والقراءة وفق منظومة سردية يتفاعل فيها السَّرد والوصف والزّمن والشخصيات والأحيزة.. فتجمع بذلك الرواية السّيرية بين الواقعي والمتخيّل.

إنّ الرواية السَّير ذاتية –بعيدا عن المصطلح وإشكالاته النّقدية– رواية (تنطوي على حياة كاتبها كلها أو بعضها، وتكشف عن دلالة إنسانية عامة بواسطة التجسيد العيني الخاص لأحوال هذه الحياة في تفردها الشخصي) (عصفور، 1999م، صفحة 179) وعليه فإنّ امتزاج الواقعي بالتخييلي يعطي إحالة لمّاحة على جوانب كثيرة من حياة السّارد أو الأحداث المحيطة به غير أنّها تتجاوز (الإكراهات) الاجتماعية وحتّى الواقعية فلا (نتّجه للبحث المباشر عن المطابقة بين الشخصية الواقعية وسيرتها الشخصية وقد أصبحت عنصراً في تكوين فني أخر، إنما يظهر الاهتمام بكيفيات الاستثمار ودرجات الاستلهام، ومع الأخذ بالاعتبار الانحرافات والانزياحات التي تلازم كل تحول من حالة إلى حالة أخرى وهي تغييرات يفرضها تداخل أساليب السرد، ونظام الأزمنة، والضمائر والأسماء، والرؤى والمنظورات..) (إبراهيم، 1998م، صفحة 17).

أ/– **روايات البوح/الاعتراف:** روايات يغلب عليها طابع البوح، وكثيرا ما يكون الخطاب/السّرد بضمير المتكلّم الذي يطغى بصورة ماثلة على الرواية وتكاد تتطابق فيها شخصية الكاتب بالسارد ما يجعلها قريبة أقرب إلى السيرة منها إلى الرواية.

ب/– **روايات التجارب الشّخصية:** روايات تسلّط الضوء على تجارب شخصية معيّنة لها علاقة بوعي الكاتب، وتتعالق مع كثير من

تفاصيل حياته يحرّكها راوٍ ضمني، أو ما يُعبّر عنه بالذات الثانية للمؤلّف تسيطر وتحرّك مختلف زوايا السّرد، فتكون وجهة نظر الكاتب / الراوي شخصية ذاتية محورية.. والتبئير في هذه الحالة مُسقطٌ على شخصية الراوي الذي يُعتبر المصدر الوحيد للمعلومة بضمير المتكلّم، ويتجسّد (التبئير الداخلي في الخطاب غير المباشر الحر ويبلغ حدوده القصوى في المنولوج الداخلي حيث تتحول الشخصية إلى مجرد بؤرة..) (زيتوني 2002م، صفحة 42).

ج/-**الروايات النّامية:** روايات تعتمد على متابعة نموّ أو تطوّر شخصية ما من شخصيات الروائية بصرف النّظر عن كونها شخصية واقعية أو متخيّلة فالعملية السّردية تنصبّ على مختلف المراحل التي مرّت بها الشّخصية الروائية طفولة/ شبابا/ كهولة... إذْ تركّز على الجوانب السوسيو-نفسية الدّاخلة في تركيب الوعي وهي بذلك (أكثر انشغالا بما يدور في أعماق الشّخصية من تفاعلات تؤدي إلى ارتقائها...) (خليل، 2005م، صفحة 11).

إنّ هذه (التقسيمات) تبقى مجرّد اجتهادات أكاديمية نقدية قابلة للتّجدد والتّعدّد بحسب ما يُقدّم من سرود في المجال، والغرض منها (علميّ) بحت حتّى يمكن للباحثين والمعنيين والنقّاد تصنيف المنجز الروائي وبالتالي توظيف الأدوات الإجرائية المناسبة لمتابعة هذه الروايات -على تعدّدها وتفاوتها الفنّي- رغم أن الجدل النَّقدي لا يزال قائما في علاقة الرواية السّير/ ذاتية بالسيرة الذاتية الشخصية على اعتبار أنّ وضع حدود بينهما سيفضي إلى (إكراهات) يصعب معها، فالسّيرة الذّاتية وان كانت شكلاً سير ذاتيٍّ -حسب جورج ماي- إلاّ أنّ (التّخييل) هو الحدّ الفاصل بينهما، غيْر أنّه يتعسّر تحديد مفهوم

دقيق للتخييل المقصود، فإن كانت الرواية السَّيرية تجنح إلى التخييل والبناء الفنّي فإنّ السيرة الذاتية لا تستغني عنه أيضا، ومن ثمّة فإنّ "مأزقا" نقديا يتربّص بهذه الحدود والمرتكزات ويبشِّر – ربما– بحدوث التباس في ذهن القارئ بوصفه المعني الأوّل بهذا الخطاب، لذا علينا تقريب الصّورة وتجنّب إثارة الإشكالات النّقدية نكتفي بكون السيرة الذاتية أقرب منها إلى التأريخ لحياة شخصية ما وقد لا يكون الجانب الفنّي ذا أثر مهمّ فيها في مقابل الرّواية بوصفها فنّا سرديا قد يوظّف هذا التاريخ أو جزء منه بأسلوب مختلف وتخييل فنّي ومعمار جذّاب يستقطب المتلقّي.

لقد ظلّتْ وإلى أمد قريب الرواية السير/ذاتية علامة (رجالية) بامتياز بحكم المحمول (البطريركي) السّائد في المجتمع العربي – الذي يرى (الأنثوية في الإنجاب كعائدية وتكرارية لا استقلالية، وكفعل إدامة موضوعي، وليس كفعل مؤطّر وذاتي فيه المؤنّث أصل وجذر، كالأرض تماما، وليس مجرّد جنس آخر تابع لأصل هو المذكّر..) (هناوي 2018م، صفحة 195) – خصوصا وأنّ هذا الشّكل الروائي يثير كثيرا من نقاط الظّل (المسكوت عنها) والمحرّم على المرأة الخوض فيها بوصفها كائنا (ناقصا) إلى وقت قريب.. بفعل (الخوف) –ربما – من تلقّي هذا الشّكل لدى القارئ العربي في محيط مشوب بنوع من (النفاق) الأخلاقي المتجذّر في الشعور الجمعي المصدّر لهالة (التحفّظ) المصطنعة والتي لا تُعبّر في الحقيقة عمّا يحدث من تجاوزات غالبا ما تكون المرأة ضحية لها، لذلك كان دخولها معترك الكتابة السّيرية الروائية بمثابة (تقويض) لكثير من النّمطيات السّائدة وتعرية لهذه المجتمعات التي تدّعي (العفّة) وتتغنّى بالشّرف الرّفيع

والبطولات (الزّائفة)، وتجاوزت بذلك (فزّاعة) القوامة الأدبية للرّجل في الرواية السير/ ذاتية التي (تعد شكلًا أدبيًا يتحدث فيه الكاتب عن نفسه وتجربته الشخصية في الحياة فيكون مؤلفًا وراويًا وشخصية ينقل إلى القارئ تطورات وتحولات الشخصية ومن خلالها تجربة إنسانية اجتماعية أو سياسية، وهي كإنتاج نسائي شكل مستحدث ...على عكس السيرة الذاتية الرجالية الأقدم تاريخيًا) (طريطر 2018م).

إنّ العنف المسلّط على المرأة من قبل الرّجل بوصفه عشيقا/ زوجا/ أبا/ صديقا شكّل حافزا قويا لأنْ تصدعَ المرأة بما كان مسكوتا عنه في ظلّ الانفتاح التكنولوجي المجاوز لكلّ الحدود والآفاق-بعيدا عن الوصاية (المقيتة) – من خلال الكتابة كممارسة مُثلى للتعبير عن هواجسها والتّمرّد على واقع كتم أنفاسها زمنا طويلا، ومن الطبيعي (أنْ تحاول الكاتبة العبية المعاصرة مقاومة التّبعية الذّكورية مصمّمة على تهشيم الاعتداد الفحولي، مؤمنة بقدرتها على جعل الآخر معترفا بها وبأثرها المحوري والإيجابي في الحياة) (هناوي 2018م صفحة 99) فظهرت نتاج هذا التّحول في الوعي النسوي تجارب سردية راقية في كتابات (نوال السّعداوي)، (بثينة خضر مكّي)، (فضيلة الفاروق)، (نبيلة الزّبير)، (أروى عثمان) (هدى بركات)، (سحر خليفة)، (سميحة خريس)، (جنا فوّاز)، (عايدة خلدون)، (مسعودة بو بكر)، (حنان جنّان)، (هيفاء بيطار)، (حنان الشّيخ)، (قماشة العليان)، (إشراقة مصطفى).. وغيرهن.

تحاول هذه الدراسة الإجابة على كثير من الإشكاليات المفتوحة، منها:

- هل استطاعت الكاتبة العربية في المجتمعات المحافظة تجاوز ذاتها وتمرير خطابها وهواجسها من خلال فعل الكتابة؟

- هل يمكن الحديث عن خصوصية سردية نسوية في ظلّ هيمنة الخطاب الذكوري، ومن ثمّة تشكيل منجز سردي نسوي قائم بعيدا عن (العقدة التاريخية) للمرأة العربية التي لاتزال ترافع لضرورة تحقيق المساواة مع الرجل رغم الإكراهات، ومقتضيات الخصوصية الاجتماعية العربية؟

- هل استطاعت الرواية النسوية السودانية تجاوز ذاتها، والخروج من عباءة الروائي العالمي (الطيب صالح)؟

هذه الإشكاليات، وغيرها تحاول هذه الدراسة مقاربتها، بالاتكاء على تعاضد عدد من المناهج، كالوصفي، والتحليلي، والسوسيولوجي، رغبة في الوصول إلى نتائج كفيلة بتشكيل موقف نقدي بمعطيات علمية.

2.خصوصية الخطاب السّردي السير/ذاتي النسوي العربي: ينبغي التأكيد على خصوصية الكتابة النّسوية التي لم تكن محلّ اختلاف بين مختلف الآراء النَّقدية والنّظريات تحديدا في الرواية السير/ ذاتية فلا يمكن تطبيق مقولة (موت المؤلف) –بتعبير نانسي ميلر– على المرأة حيث (يمنع سؤال المؤسسة بالنسبة لهنّ، لأنّ النساء لديهنّ العلاقة التاريخية نفسها للهوية مع الأصل والمؤسسات مقابل تلك التي حصل عليها الرّجل) (العدواني، 2009م).

ولعلّ الهامشية التي كانت تسيطر على كتابة المرأة قد صارت مركزا مسيطرا الآن نظير الحجم المتزايد للروايات النّسوية الصادرة إضافة إلى التّمثيل المشهود في مختلف الفعاليات الثقافية حضورا ومشاركة وتتويجا وهو ما أفردنا له هامشا إحصائيا في الفصل الأوَّل من هذه الدراسة.

إنّ الكتابة السير /ذاتية –كما تقول الروائية التونسية حنان جنّان– (نوع من الكتابة قد يكون جريئًا، خاصة إذا كانت الكاتبة امرأة شرقية بل قد يكون مغريًا للقارئ العربي بالذات الذي لا يستطيع أن يمنع نفسه أحيانًا من استراق السمع لمعرفة ما يجري وراء الأبواب المغلقة) (جنان2018م).

1.2. سيطرة الأنا المقموع بضمير المتكلّم: على خلاف الكاتب الرّجل فإنّ القمع/القهر/ ومختلف الإكراهات تمثّل مادة دسمة لمختلف الروايات السيرية النسائية بالرّغم من تجاوز المرأة –نظريا على الأقل–لمعضلة التّهميش، وهو ما يفرض حالة من (التغييم) على المنجز الروائي النِّسوي.

إنّ السّرد النّسوي العربي برمّته يعيش أزمة هوية فعلا في غياب رؤيا موضوعية تحتفي به كمنجز إبداعي إنساني بعيدا عن التّصنيفات (المدرسية) المجحفة، قريبا أقرب إلى كونه مشروعا، فالمرأة –بتعبير كريستيفيا– لم تكن يوما نقيضا للرجل بقدر ما هي شريكته على اختلافهما البيولوجي – ورغم ذلك فإنّ هيمنة النّزعة (الذكورية) نتج عنها سطوة ضمير المتكلّم في السّرد النسوي السير / ذاتي إضافة إلى حضور الجسد بوصفه مكوّنا مفصليا في الرواية النّسوية، وهاجسا (أنثويا) يسيطر على المرأة ككلّ على تعدّد هواجسها، فالجسد الذي (طالما أوعز لها الإثم والخطيئة. فاستحال تعبيرها عنه إبداعيّاً، ممقوتاً ومرفوضاً لمجرّد أنّها امرأة.. ولمّا وعت المرأة قدرتها على صياغة النّصّ الإبداعيّ كتبت عن الجسد جسدها، وعبّرت بحرّيّة رغم كلّ الانتقادات والاتّهامات الموجّهة إليها..) (عسكر، 2017م) إلاّ أنها كثيرا ما تجد نفسها مجبرة –لا شعوريا–على الخوض في ما تعانيه

المرأة العربية ككلّ وقد تنصّب نفسها ناطقا رسميا لها دون وعي منها ومن ثمّة يفقد العمل السّردي قيمته الفنية وعليه فالكاتبة أمام رهان إثبات حضورها وتجاوز كلّ (الينبغيات) ووعيها بأهميّتها ككائن ظلّ (مسحوقَ) الهويّة ولا يزال في بعض المجتمعات العربية التي تحتكم إلى نظام القبيلة.

إنّ (أول ما يحدد برنامج كتابة الهوية الأنثوية عند الكاتبات اللاتي نهتم بالإحالة على سيرهن الذاتية في هذا المبحث، وهن خاصة فدوى طوقان (1917م–2003م)، ولطيفة الزيات (1923م–1996م)، ونوال السعداوي (1931م)، نوعية الموقع أو المقام التعبيري الذي تستقيم ابتداءً منه مبررات نشأة المشروع السير ذاتي الأنثوي باعتباره مشروعاً جديراً بالكتابة، قادراً على تأصيل أبعاد الهوية الأنثوية في سياقها التاريخي والثقافي العربيين..) (طريطر 2018م).

2.2. فقدان العلاقة الحميمية بالمكان: المرأة العربية تعيش حالة من التّشظّي، حالة من فقدان الهوية كأنثى لها خصوصيتها ما يجعل علاقتها بالأمكنة رتيبة إلى حدّ ما في كتاباتها، و(غالبا ما تكون علاقة غربة وتشظٍّ، والسّببُ في ذلك ذكورية هذه الأمكنة أو الأوطان التي تتسبب في اغتراب الهوية الأنثوية..) (المناصرة، صفحة 142) ولعلّ تخييم هذه الحالة في المنجز الروائي السير/ ذاتي النّسوي له ما يبرّره نتيجة المسنونات الاجتماعية والمآلات النّهائية المتمثلة في البيت والأولاد وهامش قليل للحرّية التي كانت حلما لها فأصبحتْ مجرّد أمنية بعد هذا المآل، أو هكذا تتصوّر المرأة العربيّة.

3.2. خطاب الفجيعة والفقد: تمثّلُ خطاب الفجيعة والفقد في كثير من المنجزات نتاج مخلّفات ما عُرف بالربيع العربي، ومختلف

النّزاعات البينية فالمرأة في (اليمن) و(السودان) و(سوريا) و(مصر) و(الجزائر) و(فلسطين)... دفعت ولا تزال تدفع ثمن ما يحدث بفجيعتها في زوجها أو حبيبها أو والدها أو أخيها..

3. حضور المرأة في رواية (أنثى الأنهار، من سيرة الجرح والملح والعزيمة) للسودانية (إشراقة مصطفى):

1.3. توصيف الرواية: صدرت رواية (أنثى الأنهار، من سيرة الجرح والملح والعزيمة) في طبعتها الأولى عن دار النسيم للنشر والتوزيع بالقاهرة 2017م، في حدود 200 صفحة من القطع المتوسط، وهي تمثّل حالة سودانية بامتياز، حيث تعرّفنا على كثير من تفاصيل المجتمع السّوداني من عادات وتقاليد وأنماط تفكير من خلال أنثى سودانية وهو ما تثبته الإحالة (أنثى الأنهار) فقد عُرف السودان بكثرة أنهاره منْ وغليه غرار (نهر النّيل)، (نهر سيتيت).. حتى سمّي بأرض النيليْن.

تحاول الروائية في هذا المنجز تقديم نفسها من خلال شخصية البطلة وتسليط الضّوء على مختلف مراحل العمر وتمثلاته/ بخيباته وأفراحه بحلّه وترحاله، بدءاً بالطفولة وانتهاء بالسّفر إلى (السويد) حيث تتغير المعطيات ويتجدّد النّفس، وتنفتح الآفاق.. كل ذلك بأسلوب جريء غير معهود في الرواية النّسوية ودون تجميل لكثير من الحقائق ونقاط الظّل فقد تعرّضت البطلة للختان كسلوك اجتماعي قائم و(طقس دمويّ) بدائي في كثير من المجتمعات العربية وما يلحقه من إحباط نفسي بالأنثى التي تتجرّع مرارة هذا الفعل مع عجزها عن درئه:

(حاولت رفع رأسي لأرى ماذا تفعل هذه المرأة، زجرتني التي تمسك يدي اليسار بأن أغمض عيوني ولا أسأل كثيرا، كنت أسمع

صوت الطبل يعلو في الخارج، بنات الحلّة والنساء يزغردن كلما غاصت الداية في لحمي..) (إشراقة 2017م، صفحة 26) فالحدث الذي يمثّل نقطة سوداء في ضمير المرأة العربية ملفوفة بكثير من الحقد اتجاهه، يقابله فرح (محيّر) واعتداد اجتماعي بهذا الإرث القميء المسيطر على كثير من المجتمعات العربية إلى اليوم.

ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، بل أنّها حاولت بما تستطيع مساعدة عائلتها والتّضحية بطفولتها الحالمة في سبيل إبعاد شبح الفاقة عنها وعن عائلتها فاضطُرت لبيع الشّاي في الطّرقات وأشياء أخرى ..كما تتذكّر بكثير من الألم –كونها امرأة– زواج والدها ثانية وما يلحقه هذا الفعل من أسى في الزّوجة الأولى، فالمرأة العربية لا تزال ترفض التّعدّد الذي يسحقها، ولعلّ موقف والدتها في تلك الليلة له ما يبرّره: (ومنذ قراره الزواج مرة أخرى ومنذ تلك الليلة التي جلست فيها أمي على كرسي حتى الصباح تدخن لفافات حزنها، كنت أتقلّب في فراشي...) (إشراقة 2017م، صفحة 40).

إنّ الأحداث السياسية والاجتماعية المختلفة التي عرفها (السّودان) ألقت بظلالها على الرواية، فكانت الكاتبة أمينة في سرد يومياتها إلى غاية هجرتها فقد تناولت الروائية مختلف الأحداث السياسية التي عاشها (السودان) وبروز الصّراع بين التيار الإسلامي والتّيار الشيوعي والذي كانت مدرجّات الجامعة مسرحا له، حيث شهد الحضور الطلاّبي حراكا مستمرّا وبروز الدّور النّضالي للمرأة السّودانية ككل ممثّلة في الطالبات اللاّئي كنّ ينقسمن إلى تيارين متناقضين: الإسلامي والشيوعي، ورغم أنّ بطلتنا كانت (شيوعية) الاتجاه رغبة منها في الانتصار للطبقات (المسحوقة) إلاّ أنّ علاقتها

بالأخريات من التيار الموازي كانت تسير بصورة عادية ما يبرز درج النّضج والوعي التي كانت عليها المرأة السودانية في تلك الحقبة منتصف الثمانينيات من القرن الماضي (1985م): (.. ذلك العام... حيث تحقق الحلم بأن أدرس الإعلام هناك استمرت تجربة العمل السياسي في الجامعة الإسلامية بكلية البنات تجربة حقيقية عشناها بكل ايجابياتها وسلبياتها وحافزنا كان التغيير...) (إشراقة 2017م، صفحة 96) إضافة إلى الانقلاب السياسي الحاصل على (النّميري) من قبل وزير الدفاع (عبد الرحمان سوار الذهب) في أفريل 1985م، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه في 2019م فقد عاش (السودان) الظروف نفسها تقريبا قبيل إسقاط حكم الرّئيس (عمر البشير) والأجواء المشحونة السّائدة بعد هذا الحدث.

2.3. الملامح الفنّية للرواية: لئنْ حاولت الروائية (إشراقة مصطفى) تسليط الضّوء على جوانب مهمّة في حياة المجتمع السوداني ونمط تفكيره وعاداته وتقاليده خصوصا ما تعلّق بالمرأة باقتدار كبير، وبجرأة لافتة، إلاّ أنّه ما كان للرواية أن ترقى فنّيا لو لمْ تكن الكاتبة تمتلك الأدوات اللاّزمة والإستراتيجية المُحكمة لتقديم هذا المنجز السَّير/ ذاتي في شكله ومستويات خطابه، وفي تيماته..

1.2.3. فنُّ التّعتيب.. من الفرادة إلى التّعضيد: لرواية (أنثى الأنهار، من سيرة الجرح والملح والعزيمة) خصوصية لافتة من حيث (التّعتيب) أو العنونة فلئن كانت الروائية قادرة على الاكتفاء بالعنوان الأساس الذي تُعرف به الرواية (أنثى الأنهار) على رمزيته ودلالاته التي تشير كلّها إلى المرأة (السودانية) على اعتبار أنّ السودان بلد النّهرين بلْ وأنهار أخرى عديدة –كما سبقت الإشارة إليه–غير أنّ

الروائية عضّدت العنوان الرئيس بعنوان آخر (..من سيرة الجرح والملح والعزيمة) وهي تقنية عالية الجودة –في نظري على الأقل– بالأخص في الرواية السّير/ ذاتية لأنّها تضع القارئ بين حضُورِيْن أحدهما كلّي ينفرد به والثّاني ملْمحي جزئي يوضّح الرؤيا ويتغلغل في وعيه، ويقدّم ملمحا أوّليا عمّا يمكن أن تكون عليه الرواية، والروايات كما النّساء تُعرف من ملامحها هذا إذا اعتبرنا العناوين ملامح فقد سبق وأنْ أكّدنا على أنّ العنونة صناعة وفنٌّ وليست اعتباطا، والعنوان في هذا الشأن (فيزا) النّص نحو القارئ. وهو (اللحظة التنويرية المبدئية لفحوى النص والبوابة الرئيسية التي تفتح النص على الجهات الكونية الأربع، والنقطة المشتركة بين المتلقي والنص... وللعنونة خصوصية وأهمية تصل أحيانا إلى درجة التحكم بالنص، فهي التي تدفع بالنص إلى الواجهة، وهي التي تحجب النص عن الأنظار، وتضع بينه وبين المتلقي حجابا في أحيان أخرى). (الطائي، 2019م).

لقد مارست (إشراقة مصطفى) التّعضيد لحاجة فنّية في نفسها قضّتها فكان إضافة تفْصح عن نبْض هذا النّص حتى قبل الدخول إليه، وسبْر أغواره فمارست بذلك سلطة استقطاب القارئ والاستحواذ عليه والإيقاع به في عمليّة فنّية –وإن لم تكنْ جديدة– حقّقت المُراد.

2.2.3. السّرد بضمير المتكلّم.. أو الترجمة الذاتية الخيالية:

السّرد بضمير المتكلّم من "أكثر الوسائل لإبراز الإحساس الذي ينقله القاص دراميا" (بيرسي، 1981م، صفحة 121) لأنّ يفتح للراوي مساحات واسعة يمكن من خلالها التعبير بكلّ أريحية عن المكنونات والمواقف والآراء وحتى الأفكار والإيديولوجيا، وهذه التقنية (تسمح

بوجود أي نوع من التأمل وتجعلهُ مشروعا عن طريق استخدامه في الانفعالات..) (ديفوتو، 1969م، صفحة 209) ممّا يؤكّد وثوق الصلّة بين هذا الشّكل من السّرد (ضمير المتكلّم) وبوح الروائي/الكاتب بما يحرّكه من مشاعر وأحاسيس وقناعات وما يؤرقه من (إكراهات) و(مسنونات)... فكان بذلك السّرد بضمير المتكلّم (ترجمة ذاتية خيالية..) (إسماعيل 1978م صفحة 187) فعلا، كما أنّ السّرد عادة ما يكون موجّها نحو الوراء انطلاقا من الحاضر – بتعبير عبد الملك مرتاض– (مرتاض، 1995م صفحة 198) وهو ما تحقّق في الرواية، حيث تنطلق رواية (أنثى الأنهار) من قاعة انتظار المسافرين بالمطار وتقوم باسترجاع تفاصيل حياتها بانطلاق هذه الرحلة المتوجهة إلى (فيينا) لتكتمل فصولها على وقع صوت المضيفة المعلِنة بدء الاستعداد للنّزول بمطار (فيينا) وانتهاء الرّحلة: (سيرة وحكاية بطول النهر، شريط سينمائي عبر حالما حلقت الطائرة في اتجاه المجهول، كنت غريقة في تلك التواريخ وتلك الذاكرة تنفجر في عيوني دمعا مالحا، صوت المضيفة ينتزعني من كل هذا الدفء والحزن والألم والعبرات وهى تنبه بأن الطائرة ستهبط بعد قليل على مطار فيينا الدولي: اربطوا الأحزمة..بالكاد أفتح عيونى المنتفخة بالبكاء... البياض على مد البصر، فيينا كانت ترتدي فستانها الأبيض الناصع... وغدا سنحكى عن الانتصارات... كانت (الحبة) التي أروِّق بها قلقي وأهزم بها يأسى..) (إشراقة، 2017م صفحة 190).

3.2.3. هيمنة الرّاوي الكُلِّي: بسطت الروائية (إشراقة مصطفى) هيمنتها على النّص بكلّ حيثياته من خلال راوٍ كُلّي العلم، أو ما يسمّى (الراوي العليم) المحرّك للسّرد بضمير المتكلّم (أنا) حيثّ كرّست

نفسها نقطة استقطاب مركزية تفرض تعلّقَ المتلقّي بها الذين لا يرون إلاّ ما يرى الراوي المهيمن هيمنة مطلقة على فعل السّرد، وهو (يَحُول بين القرّاء والعالم الروائي، فلا يجعلهم يروون إلا ما يريهم هو إياه، ولا يعلمون إلا ما يريدهم أن يعلموه. أما الشخصيات فتقوم بفعل الأحداث دون أن تعلم المصائر المجهولة التي تنتظرها، لأنها لا ترى إلا ما تقع عليه عيونها فقط. فهي مخلوقات محدودة العِلم والخبرة. وأما (الراوي) فهو القوة الخارقة التي تكشف أمامها الحجب). (عزّام، 2005م، صفحة 90). وبذلك فهو يحتكر الممارسة السّردية بكلّ هوامشها ومُرتكزاتها ويمرّر قناعاته (انتماؤها الشيوعي) ومواقفه (رفضها الضّمني لختان البنات) وتوجّساته (تخوّفها من نتائج الاضطرابات التي عرفتها السودان وإعدام الأستاذ محمود) واهتماماته (نضال المرأة السودانية) كما يمكنه (أن يتدخل بالتعليق أو الوصف الخارجي بلا تحليل أو تفسير. ومثل هذا النوع يجيء منحازاً إلى صف أبطال روايته لكنه انحياز مكشوف أحياناً وخفي أحياناً أخرى..) (يمنى، 1986م، صفحة 83).

إنّ خيار الراوي الكلّي العلم كان خيارا ملائما للشّكل الروائي السير/ذاتي ولعلّه يسيطر على أغلب روايات هذا الشّكل السّردي نظير قدرته على الإمساك بزمام الأحداث وفاعلية السّرد، وممارسة عملية الاستقطاب والشّد اتجاه القارئ العربي كونه المعني الرئيس بهذا المنجز.

3.3. اللّغة الروائية و(مونولوجية) الرواية: لا يمكن الحديث في هذه الرواية عن (التنويع) اللّغوي إلاّ في إطار ضيّق حيث استعملت الروائية اللّهجة السودانية في الحوارات بخلاف الفصحى في المتن،

ومع ذلك فإنّ أحادية السّارد / الراوي وسلطته المطلقة على الرواية جعلت منها رواية (مونولوجية) بامتياز وإنْ لم تكتفي بسجلّ لغوي واحد –كما يذهب إليه باختين– حيث يرى ضرورة تجاوز الرتابة والتكرار بالتركيز على التّنويع وتعدد الأصوات كما هو الشأن بالنسبة للرواية (البوليفونية).

ولعلّ المعجم اللّغوي وطبيعة اللغة المختارة في المنجز السّردي من قبل الكاتب عاملٌ مفصلي في نجاح العمل الأدبي والرواية بالخصوص وإنْ لم تكنْ اللغة بطلةً في هذه الرواية نظرا لبساطتها، إلاّ أنّ اختيار الفصحى في المتن واللّهجة السودانية في الحوار له ما يبرّره حتما بعيدا عن (المُسلّمة) النّقدية السائدة التي تفرض هذا النّمط على الروائي حيث يُفترض –حسب بعض النّقاد– أن لا يخرج الروائي في السّرد عن الفصحى على أن يتقيّد بالعامية في الحوار مراعاة للواقعية! وهي (مُسلّمة) قاصرة –في نظري على الأقل–لا خلفية معرفية لها تصدّى لها النّاقد الجزائري (عبد الملك مرتاض) واستفاض فيها (مرتاض، نظرية الرواية، 1998م، صفحة 12)، فاللغة رهان بمستويات عديدة يتحمّل مسؤوليته الكاتب وفق الاقتضاء السّردي، واختيار أقصر الطرق للوصول إلى القارئ واستقطابه عبر اللغة ركنٌ من أركان الرواية.

وما دمنا بصدد الحديث عن لغة الرواية، فإنّ أهمّ ملاحظة يمكن تسجيلها على الرواية –بعيدا عن إشكالية اللغة بين الفصحى والعامية – هي غياب دور (المدقّق اللّغوي) إنْ على مستوى الناشر، أو على مستوى المؤلف حيث كثرتْ الأخطاء في الرواية خصوصا الإملائية منها، وهو ما يجعل مسؤولية الطرفين قائمة، وأتفق مع الرأي القائل

بأن الروائي الذي (لا يملك ناصية اللغة وقواميسها الحرفية والمجازية ولا يحسن توظيفها توظيفا أدبيا ساميا ويستثمرها في سياقات تواصلية وتداولية ذات مقاصد تداولية فنية وتعبيرية في قمة البلاغة والجمال والروعة الفنية فإنه لن يستطيع أن يكون كاتبا روائيا ناجحا ومتميزا..)(حمداوي، 2006م).

4. نتائج: من الضّرورة بمكان التأكيد على جرأة الكاتبة (إشراقة مصطفى) في طرحها لقضايا المرأة السودانية واهتماماتها وهواجسها من دون أقنعة ولا حواجز ولا تزييف رغم (التّحفظ) الشّديد المشوب بالحذر الذي يبديه المجتمع السوداني –وهو حال أغلب المجتمعات العربية – عندما يتعلّق بالمواضيع المسكوت عنها كظاهرة ختان البنات التي تمثّل نسبة عالية جدا (87 %) التي تلاشت في أغلب المجتمعات العربية إلاّ أنها لاتزال تلقي بظلالها على المشهد النسزب السوداني. بالإضافة إلى ظاهرة التّعدد التي ينجرّ عنه في كثير من الأحيان تشرّد عائلات بأكملها، وارتفاع نسب "التّطليق القسري"، وظاهرة عمل الأطفال، وارتفاع نسبة الأميّة.

بالتوازي مع ذلك، فقد قدّمت الكاتبة صورة مشرقة للمرأة السّودانية الشّريفة المناضلة، المحافظة، المبادرة إلى فعل الخير، المثقفة والشاهد في ذلك الروائية السودانية "ملكة الدار محمد عبد الله" وروايتها (الفراغ العريض) التي كتبت في بداية خمسينيات القرن الماضي، وطبعت العام 1970م عن المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون بالسودان، حيث تقدّمها (إشراقة مصطفى) على أنها أول رواية نسوية عربية، وكأنّ الكاتبة أرادت التأكيد على أنّ (السودان) رغم كلّ

الأحداث السياسية والانقلابات المتكرّرة والصعوبات الاقتصادية فإنّه يمثّل واجهة ثقافية رائدة قدّمت الكثير من الفتوحات العلمية والثقافية والأدبية للثقافة العربية والإنسانية ولم يكنْ يوما خارج مجال التحولات التي تعرفها البشرية.

5. المراجع

- الشيخ خليل. (2005م). السيرة والمتخيّل، قراءة في نماذج عربية معاصرة. عمان: دار أزمنة للنشر، ط1.
- العيد يمنى. (1986م). الراوي، الموقع والشّكل، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية ط1.
- برنار ديفوتو. (1969م). عالم القصّة. (محمد مصطفى هدارة، المترجمون) القاهرة: عالم الكتب، ط1.

PP. 401-420
ISSN : 1112-3575 EISSN : 6545-2600

- جابر عصفور. (1999م). زمن الرواية. دمشق: دار المدى للثقافة والنّشر ط1.

- جليلة طريطر. (08 02، 2018م). أدب السيرة الذاتية النّسائية في تونس. تم الاسترداد من نون بوست:https://www.noonpost.com/content/21938

- جميل حمداوي. (27 11، 2006م). اللغة في الخطاب الروائي العربي. تم الاسترداد من دنيا الوطن:
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/11/27/64575.html

- حسين المناصرة. (بلا تاريخ). إشكاليات الهويّة في الرواية النّسوية العربية، كتاب الرواية النسوية العربية.

- حنان جنان. (08 02، 2018م). أدب السيرة الذاتية في تونس. تم الاسترداد من نون بوست:
https://www.noonpost.com/content/21938

- صالح الطائي. (14 06، 2019). العنونة وإعجاز الحضور. تم الاسترداد من المثقف، العدد:
http://www.almothaqaf.com/b/readings-5/934779 *:4665*

- عبد الله إبراهيم. (1998م). إشكالية النّوع والتّهجين السّردي. مجلّة نزوى عدد: 14.

- عبد الملك مرتاض. (1995م). تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدقّ. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط1.

- عبد الملك مرتاض. (1998م). نظرية الرواية. الكويت: سلسلة عالم المعرفة منشورات المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.

- عز الدّين إسماعيل. (1978م). الأدب وفنونه. القاهرة: دار الفكر العربي ط7.

- لطيف زيتوني. (2002م). معجم مصطلحات نقد الرواية. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1.

- لوبوك بيرسي. (1981م). صناعة الرواية. (عبد الستار جواد، المترجمون) بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ط1.

- مادونا عسكر. (22 10، 2017م). ندوة الكتابة النسوية وسلطة الجسد. تم الاسترداد من ديوان العرب:
https://www.diwanalarab.com/spip.php?article48165

- محمد عزّام. (2005م). شعرية الخطاب السّردي. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1.

- مصطفى إشراقة. (2017م). أنثى الأنهار. القاهرة: دار النّسيم للنّشر والتّوزيعط1.

- معجب العدواني. (28 05، 2009م). مرايا الذات في الرواية النسوية العربية. جريدة الرياض، العدد: 14948.

- نادية هناوي. (2018م). تمثيلات الأنثوية في الرواية النسوية، كتاب الرواية النسوية العربية. منشورات كتارا.